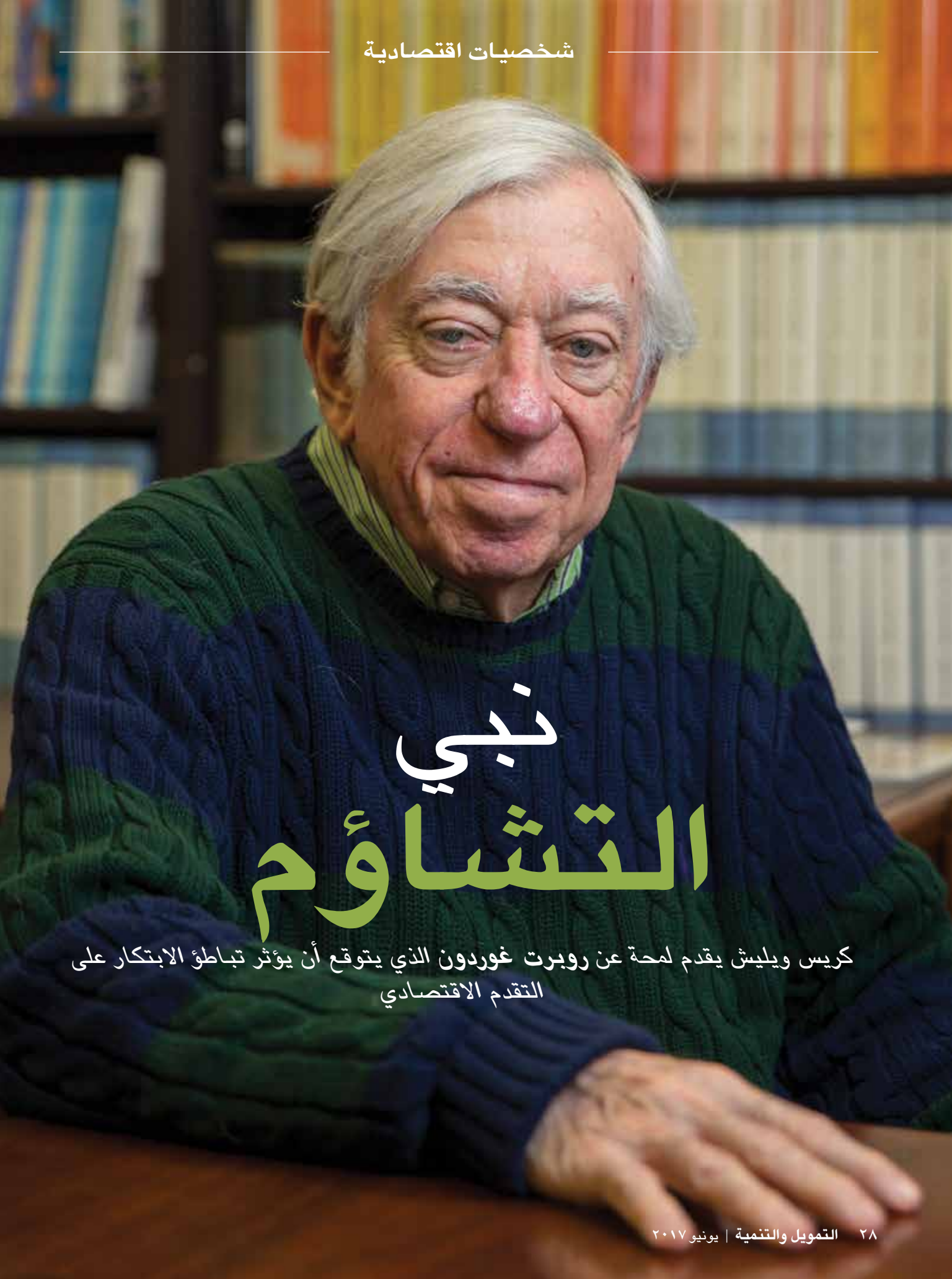

نبي التشاؤم

كريس ويليش يقدم لمحة عن **روبرت غوردون** الذي يتوقع أن يؤثر تباطؤ الابتكار على التقدم الاقتصادي

لدى روبرت غوردون رسالة قاتمة لجيل الألفية في الولايات المتحدة: على عكس الأجيال السابقة منذ أواخر القرن التاسع عشر، لن تروا مستوى معيشتكم يتضاعف بالمقارنة بمستوى معيشة آبائكم.

ويقول غوردون، ٧٦ عاما، وهو جالس في مكتبه المصفوف بالكتب في جامعة نورث ويسترن في إيفانستون بولاية إلينوي: «أنا هنا نبي التشاؤم». وغوردون هو مؤلف الكتاب الأكثر مبيعا «صعود وسقوط النمو الأمريكي» (*The Rise and Fall of American Growth*). وتتمثل أطروحته المثيرة للجدل في أن الولايات المتحدة من المرجح أن ترزح لفترة تحت وطأة الركود الاقتصادي، وهو ما يرجع إلى حد كبير إلى أن اختراعات المستقبل من غير المرجح أن تكون ثورية كتلك التي ظهرت في «القرن الخاص» الممتد من ١٨٧٠ إلى ١٩٧٠.

فهو يرى أن الكهرباء ومحرك الاحتراق الداخلي والسباكة الداخلية حسنت بشكل كبير مستوى المعيشة بطريقة لا يرجح تكرارها. ومعظم التطورات منذ ذلك الحين تتسم بأنها تدريجية وليست تحويلية.

ويقول غوردون في مقابلة أجريت معه في الحرم الجامعي شمال شيكاغو مباشرة على شاطئ بحيرة ميشيغان: «انتقلنا من سرعة الحصان والشراع إلى البوينغ ٧٠٧، ولم نذهب بسرعة أكبر منذ ذلك الحين. «فالتلغراف في عام ١٨٤٤ خلق الاتصال الفوري، ونحن الآن نعكف على تطويره».

أبعد من البرج العاجي

وأدى نشر كتاب «صعود وسقوط» العام الماضي إلى دفع غوردون إلى مصاف الاقتصاديين الذين تمتد شهرتهم أبعد من البرج العاجي. ويقدر غوردون أنه تمت مقابلته على الأقل ٨٠ مرة من جانب الصحفيين وتلقى أكثر من ٢٠٠ رسالة إلكترونية من القراء. وقد أدلى بحديث تيد توك (TED Talk) الإلزامي وظهر على شاشة التلفزيون. وكان بيل غيتس، مؤسس مايكروسوفت، من بين العديد من المراجعين لكتابه.

ويتردد صدى رسالة غوردون المتشائمة في وقت يتسم بالضيق الاقتصادي، حيث يكافح العلماء لشرح الظاهرة التي بعث لها لورانس سامرز من جامعة هارفارد مصطلح «الركود المزمن» (secular stagnation). وفي الفترة من ١٩٧٠ إلى ٢٠١٤، نمت إنتاجية العمل (الناتج عن كل ساعة عمل) بمتوسط وتيرة سنوية بلغت ١,٦٢٪ مقابل ٢,٨٢٪ في نصف القرن السابق.

ويقع كتاب «صعود وسقوط النمو الأمريكي» في ٧٦٢ صفحة، ويقدم وصفا مفصلا ونابضا بالحيوية للتحول في كل جانب من جوانب الحياة اليومية في أمريكا، من التسوق والترفيه إلى الطب والبنوك. وحتى الذين يعارضون استنتاجاته يعجبون باتساع معرفته وعمقها.

ويقول آندرو ماكافي المؤلف المشارك مع إريك برينيولفسن لكتاب «عصر الآلة الثاني» (*The Second Machine Age*) «إن بوب (روبرت) يمتلك حجة لا يرقى إليها الشك بشأن الماضي». ويشير هذا الكتاب إلى أن أجهزة الكمبيوتر والتكنولوجيات الرقمية الأخرى ستفعل للقوة الذهنية ما فعله المحرك البخاري للقوة العضلية. «فهو يقدم الحجة بشكل جيد جدا على أن القرن الماضي كان استثنائيا تماما. أما الأمر الذي لا نتفق أنا وبوب عليه فيتعلق بالابتكارات التي نراها تتكشف من حولنا الآن، وإلى أي مدى سيكون تأثيرها.»

تأثير أقل

ولا يعترض غوردون على أهمية تطورات مثل الحواسيب الشخصية والإنترنت، والتي ولدت طفرة نمو من عام ١٩٩٦ حتى عام ٢٠٠٤. ولكن معظم هذه التطورات لا ترقى إلى ما يسميه «الاختراعات الكبرى» في الماضي، والتي أعادت تشكيل الاقتصاد بطريقة لم تفعلها الهواتف الذكية وأجهزة الكمبيوتر اللوحية. وفي المناسبات العامة، يعرض غوردون صورتين جنبا إلى جنب: هاتف ذكي ومرحاض، سائلا «أيهما تختار التخلي عنه؟».

ويتلذذ غوردون بدوره كناقد للمتفائلين بالتكنولوجيا. وأحد شركائه في السجال الفكري هو جويل موكير، وهو خبير اقتصادي زميل في جامعة نورث ويسترن، والذي يشير إلى غوردون مازحا بأنه «زميلي الموقر والمضلَل كثيرا».

وأشار موكير في ظهور له مؤخرا في مقر صندوق النقد الدولي في العاصمة واشنطن، حيث ناقش كتابه المعنون «ثقافة النمو: أصول الاقتصاد الحديث» (*A Culture of Growth: The Origins of the Modern Economy*) قائلا: «نحن نتفق في الواقع على معظم الأمور».

وفي هذا الكتاب، يرى موكير أن القيم والمعتقدات التي نشأت في أوروبا الغربية في السنوات ١٥٠٠–١٧٠٠ أنتجت روحا من البحث العلمي أرست الأساس للاختراعات العظيمة التي جاءت لاحقا. فقد كان الشرط المسبق للمحرك البخاري اكتشاف أنه من الممكن إنتاج الفراغ.

ويقول موكير: «إذا نظرتم إلى ما يحدث للعلم والتقدم العلمي في العقد الماضي، أعتقد أنه كان مثيرا كعهدنا به دائما».

ويتمسك غوردون برأيه، قائلا إنه يرى القليل من الأدلة على أن أحدث التقنيات كان لها تأثير كبير.

ويشير غوردون قائلا: «الكثير من الأمور يجري اقتراحها — أجزاء الجسم القابلة للاستبدال، وثورات هائلة في الطب — لكنها سوف تحدث ببطء شديد».

الصورة: JUSTIN RUNQUIST

وكتاب «صعود وسقوط» هو تتويج لعقود من البحث في مصادر النمو الاقتصادي. ففي أطروحة غوردون للدكتوراه في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وضع طريقة جديدة لتقدير تكاليف البناء. وأدى ذلك في نهاية المطاف إلى كتابه الرائد في عام ١٩٩٠ بعنوان «قياس أسعار السلع المعمرة» (*The Measurement of Durable Goods Prices*)، والذي أظهر أن المقاييس المعيارية لرأس المال عجزت عن تفسير التحسينات في الجودة. ويشير لورانس كريستيانو، رئيس قسم الاقتصاد بجامعة نورث ويسترن، قائلا: «لقد كان إسهاما بالغ الأهمية أدى إلى تغيير الطريقة التي يفكر بها الناس في النمو».

وكان التضخم مجالا رئيسيا آخر للبحث بالنسبة لغوردون. فقد كان «الكساد التضخمي» في السبعينات — وهو زيادة في التضخم والبطالة في آن واحد — قد تحدى وجهة النظر التقليدية، التي جسدتها علاقة تُعرف بمنحنى فيليبس، وهي أن ارتفاع التضخم كان مصحوبا عموما بانخفاض البطالة.

وكان غوردون رائدا في تطوير نسخة معدلة من منحنى فيليبس فسرت تأثير صدمات العرض مثل أزمة النفط عام ١٩٧٣، عندما ارتفع سعر برميل النفط الخام من ٣ دولار إلى ١٢ دولار.

وقد شكل هذا البحث الأساس لما يسميه غوردون النموذج «المثلث» للتضخم، والذي يراعي التغيرات في العرض والطلب

> يتلذذ غوردون بدوره كناقد للمتفائلين بالتكنولوجيا

وكذلك القصور الذاتي، أو الوقت الذي تستغرقه هذه التغييرات للتأثير على المستوى العام للأسعار.

وقد ثبتت أهمية هذا النموذج في تفسير ظاهرة أخرى مثيرة للدهشة، وهي الاقتصاد «المعتدل» (*Goldilocks*) في التسعينات، عندما ظلت البطالة منخفضة في وقت اتسم فيه التضخم بالاعتدال. ويخطط غوردون الآن لتحديث نموذجه لشرح أسباب استمرار الأسعار في الارتفاع خلال الأزمة المالية العالمية ٢٠٠٨–٢٠٠٩، على الرغم من الصدمات الزلزالية التي أصابت الناتج والتوظيف.

وخلال سنوات الاقتصاد «المعتدل»، شارك غوردون في لجنة من خمسة أعضاء من الاقتصاديين شكلتها لجنة التمويل التابعة لمجلس الشيوخ في عام ١٩٩٥ لدراسة دقة مؤشر أسعار المستهلكين. وخلصت لجنة بوسكين، التي سميت باسم رئيسها الخبير الاقتصادي بجامعة ستانفورد مايكل بوسكين، إلى أن المؤشر بالَغ في تقدير التضخم بمقدار ١,١ نقطة مئوية.

واعتمد مكتب إحصائيات العمل الأمريكي بعض توصياتها لأجل تغييرات في الطريقة التي يحسب بها مؤشر الأسعار.

وأدى عمل غوردون على نموذج «المثلث» للتضخم إلى إظهار أهمية التضخم «الأساسي»، والذي يستبعد أثر أسعار الأغذية والطاقة المتقلبة. وهذا يسمح لصانعي القرار في الاحتياطي الفيدرالي بالتركيز على اتجاه التضخم على المدى الأطول مع تجاوز التقلبات قصيرة الأجل الناجمة عن مستجدات مثل زيادة مفاجئة في أسعار البنزين.

ويصف الخبير الاقتصادي الحائز على جائزة نوبل، بول كروغمان، هذه المساهمة بأنها «مهمة للغاية».

وكتب كروغمان في رسالة بالبريد الإلكتروني: «شهدنا مرتين في الآونة الأخيرة في عامي ٢٠٠٨ و٢٠١١ ارتفاعات حادة في التضخم الكلي، وحذر كثير من الناس من أن البنوك المركزية غير مواكبة للأحداث مطالبين برفع أسعار الفائدة و/أو إلغاء سياسة التيسير الكمي».

«ولكن هذه كلها كانت حول أسعار السلع الأساسية — مما معناه أن التضخم الأساسي كان هادئا. ومن ثم، كان مجلس الاحتياطي الفيدرالي، الذي ركز على التضخم الأساسي، محقا في خلوصه إلى أنه ينبغي أن يواصل السير على نفس النهج».

وقد تأثر كتاب «صعود وسقوط» برحلة إلى ميشيغان شملت المبيت والإفطار، عثر خلالها غوردون مصادفة على كتاب من الصور لأوتو بيتمان بعنوان «الماضي الجميل: كان بالغ السوء!» (*Good Old Days: They Were Terrible!*). ويصور هذا الكتاب، الذي ألفه مؤسس أرشيف بيتمان للصور، مآسي حياة الأحياء الفقيرة في أواخر القرن التاسع عشر. وتذكر غوردون قائلا: «لذا كان من الطبيعي أن نرى كيف تحسنت الأمور بشكل كبير منذ ذلك الحين».

وقد أمضى أربع سنوات في هذا الكتاب، بمساعدة فرق من مساعدي البحوث. وكان مكتبه وبيته مكتظين بأكوام من الكتب التي تعج بقصاصات الملاحظات اللاصقة. وكانت النتيجة مستوى مذهل من التفصيل يصف مشقة الحياة اليومية في الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية والتحسينات الهائلة التي جاءت في وقت لاحق مع اختراعات مثل السباكة الداخلية، والأضواء الكهربائية، وأدوات المطبخ.

وأحد مساعدي غوردون في الأبحاث كان آندرو سابين، الذي أمضى ساعات طويلة في مكتبة النقل في جامعة نورث ويسترن، متأملا جداول مواعيد السكك الحديدية في القرن التاسع عشر.

وقد وصف سابين غوردون بأنه رب عمل كثير المتطلبات جعل باحثيه يتتبعون وقتهم بشكل وثيق. ولكن العلاقة بين الاثنين توثقت في نهاية المطاف في ضوء اهتمامهما المشترك بالموسيقى، حتى أنهما كان يلتقيان لتناول القهوة

مع زوجة غوردون، جولي، وهي فنان رسم الوجوه وأستاذ اللغة الإنجليزية والدراسات السينمائية في جامعة نورث ويسترن، للحديث عن الملحنين الكلاسيكيين المفضلين ومسرحيات برودواي الغنائية.

ومكتب غوردون الأنيق، وإن كان مزدحما جدا، هو دليل على تنوع اهتماماته، والتي تشمل التصوير والطيران والتاريخ. وفي حين أن رفوفه مصطفة بكتب عن الاقتصاد، بما في ذلك العديد من الطبعات من كتابه «الاقتصاد الكلي» (*Macroeconomics*) الذي يحظى بشعبية، فإن الجدران مغطاة بصور من أسفاره إلى بلدان مثل الهند وتايلند.

وفي حصة للاقتصاد الكلي المتوسط كان فيها الفصل مكتظا بأكثر من ٢٠٠ طالب، أعطى غوردون محاضرة سريعة ومنظمة تنظيما جيدا بمساعدة جهاز عرض ضوئي سمح له برسم الرسوم البيانية بينما كان يتحدث.

ويقول غوردون إنه يتمتع بالتدريس، ولا سيما ندوة السنة الأولى بالجامعة بعنوان «هل حقق الاقتصاد فوزا في حربين عالميتين؟» (Did Economics Win Two World Wars?). ويشير غوردون إلى أن: «هذا العنوان مخادع لأنه يتعلق بالحربين، وليس بالاقتصاد فحسب».

وتعكس هذه الحيلة اهتمامه المبكر بالتاريخ. فحينما كان طالبا جامعيا في جامعة هارفارد، كان يخطط في البداية للتخصص في هذا الموضوع ولكنه غير رأيه بعد حصوله على درجة B في دورة دراسية واحدة. وكما يقول غوردون، «كان التاريخ مفرطا في الذاتية؛ فقد كان هناك الكثير من الإجابات الممكنة المختلفة»، وأضاف: «ربما كنت عصبيا جدا فقط حيال موضوع حصلت فيه على درجة B.»

يسري في العائلة

ولذا، سار على خطى والديه، روبرت آرون ومارغريت غوردون، وكلاهما من الاقتصاديين البارزين في جامعة كاليفورنيا، بيركلي. وشقيقه الأصغر، ديفيد غوردون، كان خبيرا اقتصاديا أيضا، وقام بالتدريس في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية في نيويورك. وتوفي في عام ١٩٩٦ عن عمر ٥١ عاما.

وبعد تخرجه من جامعة هارفارد في عام ١٩٦٢، ذهب غوردون للحصول على الدكتوراه في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، حيث كان مستشار أطروحته روبرت سولو، الفائز بجائزة نوبل، الذي أبدى في عام ١٩٨٧ ملاحظته الشهيرة بأن عصر الكمبيوتر يمكن رؤيته في كل مكان إلا في إحصاءات الإنتاجية. (استغرق الأمر عقدا آخر تقريبا قبل أن يصبح تأثير التكنولوجيات الجديدة على الإنتاجية واضحا).

ويرى غوردون أن التباطؤ في الابتكار ليس الشيء الوحيد الذي يعوق النمو. فالاقتصاد الأمريكي يواجه أيضا «رياحا معاكسة» مثل ارتفاع التفاوت، والاستقرار النسبي في التحصيل العلمي، ومجتمع آخذ في الشيخوخة، وعبء الدين الحكومي.

والسؤال هو: ماذا تعني توقعات غوردون المتشائمة بالنسبة لخطة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب لتعزيز النمو إلى ما بين ٣٪ و٤٪ سنويا بمساعدة التخفيضات في الضرائب على الدخل الشخصي وعلى دخل الشركات وبرنامج البنية التحتية البالغة قيمته تريليون دولار؟

الصورة: JUSTIN RUNQUIST

يتوقع الاقتصادي روبرت غوردون أن يتباطأ نمو الإنتاجية في الولايات المتحدة بشكل حاد.

بحسب قول غوردون، إن الدفعة التنشيطية التي يقدمها ترامب يمكن أن تعزز الإنتاجية والنمو على المدى القصير في وقت تعمل فيه العمالة الحالية بشكل أكثر كثافة وينضم عمال جدد إلى قوة العمل. ولكن من غير المرجح أن يستمر التحسن لأكثر من عام أو عامين.

ويشير غوردون إلى قائمة من العقبات. فسياسات ترامب من المحتمل أن تؤدي إلى ارتفاع الدولار وأسعار الفائدة، مما قد يؤدي إلى كبح النمو. كما أن التخفيضات في الإنفاق غير العسكري ستكون لها أيضا نتائج عكسية. كما أن التخفيضات الضريبية التي تستهدف أساسا الأغنياء قد لا تساهم كثيرا في زيادة الطلب، لأن الأغنياء أقل احتمالا من الفقراء لإنفاق الدخل الإضافي.

وبدلا من ذلك، ينبغي أن يركز صناع السياسات على زيادة الإنتاجية على المدى الطويل، وذلك إلى حد كبير من خلال التحسينات في التعليم والتدريب، حسب قول غوردون الذي يقترح القضاء على الفوارق بين دوائر المدارس العامة الغنية والفقيرة، والاستثمار في التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة، وإنشاء نظام للتدريب المهني على النمط الألماني.

وقال سابين، مساعد غوردون السابق للأبحاث، إنه يشعر بالارتياح إزاء احتمال أنه حتى لو تمكنت الولايات المتحدة من تحقيق الاستفادة التامة من اختراعات الماضي العظيمة، فإن ذلك لا ينطبق على الكثير من بلدان العالم.

ويقول غوردون: «لنفكر في بلدان مثل الهند حيث المياه الجارية والتوسع التحضري وكل تلك الأمور لا تزال جارية». «ما يريحني بعض الشيء هو معرفة أن الطريق أمامنا لا يزال طويلا». FD

كريس ويليش هو من فريق العمل في مجلة التمويل والتنمية.